عالَم الصِّراط

الإمام الشيخ

عبد الله سراج الدين

رحمه الله تعالى ورضي عنه

هذا البحث مقتبس من كتاب

(الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها)

من الصفحة ٤٦٢ حتى الصفحة ٥٠٢

للشيخ الإمام

عبد الله سراج الدين الحسيني

بناء على توجيهات ولده

المهندس الشيخ

محمد محيي الدين سراج الدين

رحمهما الله تعالى ورضي عنهما

ويمكنك تحميل هذه الأبحاث القيّمة

وتحميل جميع كتب الشيخ الإمام

من موقعه الرسمي والوحيد

WWW.SRAJALDEN.COM

قسم مؤلفات الإمام

- المؤلفات المكتوبة وقبسات من المؤلفات

مدير الموقع :

الشيخ عبد الله محمد محيي الدين سراج الدين

عـالَم الصـراط

قال العلاَّمة القرطبي: الصراط **لغةً**: هو الطريق.

وعرفاً: هو جسر يُضرب على ظهر جهنم، تمرُّ الناس عليه إلى الجنة، فينجو المؤمنون على كيفياتٍ متعددة ـ يأتي بيانها ـ ويسقط المنافقون. اهـ.

وقد أخبر الله تعالى أَنَّ جميع العباد سوف يَردون يوم القيامة على جهنم، ويمرون على هذا الصراط، قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾.

والكلام على هذه الآية الكريمة له وجوه متعددة:

أولاً: عموم الورود لجميع الثقلين، وأنهم كلهم سيردون جهنم يوم القيامة، ثم ينجو من يُنْجيه الله تعالى، ويُترك فيها الظالمون.

ثانياً: البحث في المراد بالورود في هذه الآية الكريمة، وقد اختلف العلماء في ذلك:

فذهب بعضهم إلى أن المراد من قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ الجواز على الصراط، لأنه ممدود على النار.

قال في: (المواهب وشرحها): ورجح هذا القول الإمام

النووي، وروى ابن عساكر عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم، وكعب الأحبار أنهم قالوا: الورود هو المرور على الصراط.

وكذا قال الحسن البصري عند البيهقي بلفظ: الورود: المرور عليها من غير أن يَدخلها.

وكذا قاله: خالد بن معدان، وعكرمة عند البيهقي وغيره. اهـ.

وذهب كثير من العلماء إلى أَنَّ المراد بالورود هنا الدخول، وقد رجح هذا القول العلامة القرطبي، وأخرجه الحاكم عن ابن مسعود رضي الله عنه، والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما وقاله جماعة[1].

قال الحافظ ابن كثير: وإلى هذا القول ذهب علي وابن عباس رضي الله عنهم، وعليه جمهور أهل العلم سلفاً وخلفاً. اهـ.

واستدلوا على ذلك بقوله تعالى ـ مُخبراً عن فرعون وقومه يوم القيامة: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾.

والمعنى: أَنَّ فرعون يتقدَّم قومه إلى النار، قائداً لهم كما قادهم في الدنيا، حتى يرد بهم النار ـ أي: يُدخلهم النار.

واستدلوا على ذلك أيضاً بقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ أي: داخلون فيها.

---

(١) كذا في: (شرح المواهب) ٨: ٣٩٣.

واستدلوا على ذلك أيضاً بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾.

فإن الله تعالى أخبر عن نتيجة الواردين فقال: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾.

فقد نجى الله تعالى المتقين بعدما وردوها، وقد أبقى فيها ـ أي: في داخلها الظالمين، جاثين على الركب من الزحام والضيق فيها.

فهذا دليل على أَنَّ الذين اتقوا أنجاهم الله تعالى منها؛ بعدما دخلوها، فأخرجهم ناجين لم يَمسسهم سوء، إذ أَنّ النجاة تكون بعد الدخول فيها، والتعرض لنيرانها.

فالمؤمنون الأتقياء يدخلونها دخول مرور وعبور، أما الكفار فإنهم يدخلونها دخول بقاء فيها وقرار.

واستدل العلماء على أن المراد بالورود في هذه الآية: الدخول ـ استدلوا على ذلك بما جاء عن أبي سُميَّة قال: اختلفنا في الورود ـ المذكور في الآية ـ.

فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن.

وقال بعضنا: ندخلها جميعاً، ثم ينجي الله الذين اتقوا.

قال: فلقيت جابر بن عبد الله رضي الله عنه فقلتُ له: إنا اختلفنا في الورود.

فقال جابر رضي الله عنه: يردونها جميعاً ـ أي: المؤمن والكافر ـ.

فقلت له: إنا اختلفنا في ذلك، فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن، وقال بعضنا: ندخلها جميعاً[1].

فأهوى بإصبعيه إلى أذنيه وقال: صُمَّتا إن لم أكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «الورود الدخول، لا يبقى بَرٌّ ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمنين بَرْداً وسلاماً، كما كانت على إبراهيم، حتى إن للنار ـ أو قال: «لجهنم» ـ ضجيجاً ـ أي: صياحاً قوياً ـ من بردهم: ثم يُنجِّي الله الذين اتقوا، ويذر الظالمين فيها جثياً».

قال الحافظ المنذري: رواه أحمد ورواته ثقات، والبيهقي بإسناد حسن. اهـ. ورواه الحاكم وصححه[2].

وروى عبد الرزاق، أَنّ ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: الورود في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ هو الدخول.

فقال نافع بن الأزرق: لا.

فقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ أدَخلوا أم لا؟

ثم قال ابن عباس رضي الله عنهما: أمَّا أنا وأنتَ يا نافع

---

(١) قال الحافظ الزرقاني: أعاد أبو سُمية على جابر رضي الله عنه السؤال لِيَعلم دليله، لأنه أجابه أَوّلاً بدون دليل، فلما فهم منه طلبَ الدليل ـ لأنه القاطع للنزاع ـ ذكره. اهـ.

(٢) انظر: (المواهب وشرحه).

فسندخلها، فانظر هل تخرج منها أم لا؟ وما أرى الله مُخرجك منها بتكذيبك ـ فضحك نافع.

وروى الإمام مسلم، عن أُم مُبَشِّر الأنصارية رضي الله عنها، أنها سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول عند حفصة رضي الله عنها: «لا يدخل النار إن شاء الله تعالى من أصحاب الشجرة أحد من الذين بايعوا تحتها».

وفي رواية أحمد: «لا يدخل النار أحد شهد بدراً، والحديبية».

قالت حفصة رضي الله عنها: بلى يا رسول الله.

فانتهرها صلى الله عليه وآله وسلم.

فقالت حفصة رضي الله عنها: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾.

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «قد قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾».

فقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يدخل النار إن شاء الله تعالى من أصحاب الشجرة أحد» أراد بذلك البشرى لأهل بيعة الرضوان، الذين بايَعُوْهُ تحت الشجرة على الموت.

ووجه البشرى لهم بأنهم لا يُعذَّبون في النار، ولا يدخلونها دُخول مُكث وقرار فيها، كما هو شأن من يعذبه الله تعالى في النار.

وأما دخول المرور والعبور بسلام وأمان، فهذا لا بُدَّ منه، كما دلَّت عليه آية ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ الآية.

فتوهمت السيدة حفصة رضي الله عنها أن أصحاب الشجرة

لا يَرِدون النار أصلاً، فاستشكلت، فأجابها صلى الله عليه وآله وسلم بأنهم يَرِدونها، ولكن الله تعالى يُـنَجِّيهم بتقواهم، ويُسلِّمُهُم من حَرِّ جهنم، فلا يَمسُّهم منها سوء ولا مكروه.

قال خالد بن معدان: يقول أهل الجنة يوم القيامة: ألم يَعدْنا ربنا أن نرد النار؟

فيقال لهم: بلى، ولكنكم مَرَرتم بها، وهي خامدة. اهـ.

وجاء في الحديث الذي رواه الطبراني، وابن عدي، عن يَعلى بن مُنْية، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «تقول النار للمؤمنين يوم القيامة: جُزْ يا مؤمن ـ أي: امش وجاوِزْني بسلام ـ فقد أطفأ نورك لهبي».

والمعنى: أَنَّ نور إيمانك أطفأ لهبي وحرِّي، وذلك لأَنَّ نور الإيمان يُطفىء النيران على نسبة قوته وضعفه، وإن دَمعة عين المؤمن من خشية الله: تطفىء بُحوراً من نيران جهنم.

روى البيهقي، والإمام أحمد في: (الزهد) عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: «ما من شيء إلا له مقدار وميزان، إلا الدمعة فإِنَّه يطفأ بها بحار من النار»[1].

قال الحافظ في: (الفتح): ولا تنافي بينهما ـ أي: بين القولين ـ في معنى ورود النار، لأن مَنْ عبَّر بالدخول تجوّز به عن المرور، لأن المار على النار فوق الصراط؛ في معنى مَن دخلها، لكن

---

(١) هذا لفظ البيهقي، ولفظ أحمد في: (الزهد) نحوه بزيادة كما في: (شرح المواهب) للزرقاني ٨: ٣٨٩.

تختلف أحوالهم باختلاف أعمالهم إلخ.

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ الآية، في هذا بيان لمنزلة تقوى الله تعالى، وآثارها في وقاية المتقي من حرِّ جهنم وعذابها، وسوء منظرها، وشدة لَفَحاتها، وذلك لأنَّ التقوى يكون بها التوقي من المكاره، فمن اتقى الله تعالى فقد توقَّى عذاب الله تعالى، وعقابه وغضبه، وسوء الحساب.

والتقوى هي على مراتب، ووقاياتها على مراتب أيضاً.

والتوقي من عذاب الله تعالى وعقابه، وغضبه وحجابه، إنما يكون بامتثال أوامره سبحانه، وباجتناب ما نهى عنه، ولذلك فسَّر العلماء التقوى بذلك.

ومن هنا يفهم العاقل أَنَّ الأعمال والأقوال التي شرعها الله تعالى لعباده، لها آثارها في نفوس العباد وقلوبهم، وعقولهم وأجسادهم، فمن امتثل أوامر الله تعالى، واجتنب ما نهى عنه سبحانه فقد انصبغ بصبغة الله تعالى النورانية، ووقاه الله تعالى بالوقايات، حتى إنَّه ليمرُّ على نار جهنم ولا تمسه بسوء، بل تكون عليه بَرداً وسلاماً، وذلك لأن لباس التقوى فيه الوقاية والمنعة.

قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ الآية.

فكما أَنّ أَلْبِسَةَ الدنيا من الصوف والقطن تَقِي الحرَّ والقرَّ، فإِنَّ لباس التقوى يقي ما هو أعظم وأشدُّ وأخطر، وهو حرُّ جهنم وقرُّها.

ومن ترك أوامر الله تعالى، وركب ما نهى الله تعالى عنه، وهو مُصرٌّ على ذلك، مُعرض عن جميع ما هنالك، فقد ظلم نفسه،

حيث لم يتعاط لها أسباب الوقايات، فإن النار تُؤلمه، وتتصل بذرَّاتِ جِسمه، بل تطَّلع على فؤاده قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ أي: لأنهم هم الذين ظلموا أنفسهم، فلم يقوها من النار، بل أعرضوا عن التقوى؛ ففقدوا الوقاية من جهنم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ الآية.

ووقاية الإنسان نفسه وأهله من النار، إنما هي بأن يتقي الله تعالى، ويأمر أهله: زوجه وأولاده ومن يلوذ به ممن له عليهم ولاية، يأمرهم بالتقوى، وهي: امتثال أوامر الله تعالى، وأهمها الصلاة والزكاة والصيام، إلى ما هنالك من الفروض والواجبات، كما أنَّه ينهاهم عما نهى الله تعالى عنه من المحرَّمات.

فهاهنا شيئان: وقاية النفس، ووقاية الأهل، وذلك بالائتمار، وبالأمر ـ أي: بامتثال أمر الله تعالى، وتطبيقه على النفس، وبأمر الأهل بذلك، فمن قصَّر في واحدة من هاتين، فقد عرّض نفسه لنار جهنم.

رابعاً: في حِكمة وُرود المؤمنين، ومرورهم على جهنم.

قال العلامة المفسر المعروف بالخازن: **فإن قلتَ**: إذا لم يكن على المؤمنين عذاب ـ أي: في وُرُودهم جهنم ـ فما فائدة دخولهم النار؟

قلتُ: فيه وجوه:

أحدها: أن ذلك مما يزيدهم سروراً، إذا علموا الخلاص منها ـ أي: وأيقنوا بالنجاة من عذابها؛ بعد أن عاينوها، وبذلك يفرحون ويطمئنون.

ثانيها: أن فيه ـ أي: في وُرود المؤمنين جهنم ـ مزيد غـمٍّ على أهل النار، حيث يرون المؤمنين يتخلصون منها ـ بسلام ـ وهم باقون فيها.

ثالثها: أَنهم إذا شاهدوا ذلك العذاب الذي يكون على الكفار، صار ذلك سبباً لمزيد التذاذهم بنعيم الجنة. اهـ.

يعني: لأنه بضدها تتميَّز الأشياء، وذلك مما يزيدهم فرحاً بنعيم الجنة وسروراً، وشكراً لله تعالى الذي تفضَّل عليهم بالإيمان، والأعمال الصالحة، وتفضل عليهم بقبولها منهم، وتفضل عليهم بأن نجَّاهم من عذاب جهنم، وتفضل عليهم بأن أدخلهم جنات النعيم، ولم يَجعلهم في دار الجحيم، ولذلك راحوا يَحمدون الله تعالى، ويُثنون عليه، فقالوا كما أخبر الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ الآية.

خامساً: قوله سبحانه في الآية: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ في هذا يبيِّن سبحانه لعباده، أَنَّ هذا المرور العامَّ هو مقتضى حكمة ربوبيَّته سبحانه، وأنه قضى ذلك وحتَّمه على نفسه، فلا مَحيص للإنسان عنه، ولا مخلص له منه.

روى الشيخان، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يمـوت لأحدٍ من المؤمنين ثلاثـة من الولد، فَـيَـلِـجَ النـار ـ إلا تحلَّة القسم».

قال بعض السلف الصالح: أراد صلى الله عليه وآله وسلم بالقسم قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾.

وفي هذا دليل لأهل السنة، على أَن الله تعالى قد يُحتِّم هو على نفسه أموراً، كما أنه سبحانه قد يُحقُّ على نفسه، كما أَنه سبحانه قد يكتب على نفسه، ويُوجب على نفسه، كما أنه سبحانه هو قد يُحرِّم على نفسه ـ كل ذلك عائد إلى حكمته، وفضله، وجوده وكرمه سبحانه وتعالى.

وليس للعباد عليه حقٌّ، ولا واجب ولا ملزم له منهم، ولا معقِّبَ لحكمه، ولا رادَّ لقضائه، وإنما هو سبحانه هو يُحقُّ على نفسه، ويكتب على نفسه، ويُحتِّم على نفسه، ويوجب على نفسه، ويُحرم على نفسه سبحانه، كلُّ ذلك من باب التفضل على عباده والتكرم، والتعطف والترحم، كما هو مقتضى حكمة ربوبيته ورحمانيته سبحانه.

قال سبحانه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾.

وجاء في: (الصحيحين) عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يقول الله عزَّ وجل: وجبتْ محبتي للمتحابين فِيَّ، وللمتزاورين فِيَّ، وللمتباذلين فيَّ».

كما أنه سبحانه هو يُحرم على نفسه:

فقد روى مسلم، عن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فيما يرويه عن ربه عزَّ وجل أنه قال: «يا عبادي: إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلتُه بينكم محرّماً ـ فلا تظالموا» الحديث الطويل.

ومن جملة ما أوجب على نفسه، أن يبيِّن لعباده السبيل القصد، والصراط المستقيم الموصل إلى كلِّ خير، والمبعد عن كل شرٍّ!

قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾.

قال الزجَّاجُ: معناه: وعلى الله تَبيين الطريق الواضح المستقيم، والدعاء إليه بالحُجج. اهـ.

فلقد أوجب سبحانه على نفسه أن يُبيِّن قصد السبيل ـ أي: السبيل القصد.

والقصد هو: الوسط لا إفراط فيه ولا تفريط، فإن خير الأمور أوساطها ـ كما جاء في الحديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم.

وإنما كان الوسط خير الأمور، لأنَّه يجمع كمال طرفيه، ويترك لهما نقصهما.

وذلك كالشجاعة: فإنها وسط بين التهوُّر والجُبن:

فالتهوّر هو: الإقدام في الخير والشر، أي: الإقدام في موضع الإقدام وفي موضع الإحجام.

والجبن هو: الإحجام في موضع الإحجام، وموضع الإقدام.

فأما الشجاعة فهي: الإقدام في موضع الإقدام، والإحجام في موضع الإحجام، فأخذتْ كمال طرفيها، وتركتْ نقصهما ـ فالخير في وسطيتها.

وكالكرم: فإنَّه وسط بين الإسراف وبين البخل:

فإنَّ البخل: إمساك المال عن مستحقِّه، وغير مستحقه.

والإسراف هو: بذل المال في حقٍّ وغير حق.

وأما الكرم فهو: بذل المال في موضعه، وإمساكه عن غير أهله، وإمساكه عن بذله في غير موضعه.

فبذل المال في طُرق الغيِّ والضلال دَمار ووبال، وبَذْل المال في مُساعدة الفقراء والمساكين وذوي الحاجة والعيال ذلك موضعه، وباذله هو الكريم عند الله تعالى وعند الناس.

فالطريق الذي دعا إليه الله تعالى عباده، وبيَّنه لهم في كتابه، وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وآله وسلم هو: السبيل القصد، الجامع لكل خير وصلاح وعدل، والمانع من كل شرٍّ ونقص وفساد وجَوْر.

قال الله تعالى لحبيبه صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾.

فمن أراد سلوك الصراط المستقيم، فعليه باتباع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وذلك بأن يجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إمامه، وَيَنصب نفسه مُقتدياً به، وليلاحِظْه صلى الله عليه وآله

وسلم أمامه؛ في سائرأعماله، وأقواله وأحواله فهو الأُسوة الحسنة، الجامعة لكل حسنة.

قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾.

ولذلك لم يبق عذر لمعتذر، بعدما بيَّن الله تعالى لعباده على لسان رسله صلوات الله تعالى عليهم، وأوضح لهم الطريق الحق، وهداهم السبيل السويَّ الحقيق.

قال تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ ﴾ أي: بيَّنا له طريق الخير وسبيل السعادة، فهو بعد ذلك ﴿ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾.

وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ ﴾ أي: بينا لهم الهدى وكل ما فيه الخير لهم ﴿ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ الآية.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ أي: لما مالوا وأعرضوا عن الهدى الذي جاءهم به رسولهم من عند الله تعالى، الثابت بالبرهان والعيان ﴿ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ أي: أمالَها عن الحق، فهي معوجة لا تستقيم.

وقال تعالى في الكفار: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾.

فهو سبحانه ﴿ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾.

وقال: ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾.

وقال تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾.

فالله تعالى يُخبر عباده عما هو الحق، ويعرِّفهم بآياته الأمر الحق ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾.

وقد أخبر عباده بأنه لا يظلم، ولا يريد أَن يَظلم، ولذلك يجب عليهم أن يعتقدوا أَن جميع ما قضاه، وسائر ما يُجريه وما أجراه، كلُّ ذلك بالحق والعدل، لا ظُلم في ذلك ولا حَيْف.

كما يجب على العباد أن يعتقدوا أَنَّ جميع ما شرعه الله تعالى من الأوامر والمناهي، ومن الحلال والحرام، كلُّ ذلك حق وعدل، فيه سعادة الدنيا والآخرة، لم يَظلم عباده فيما شرعه لهم، وأمرهم به، أو نهاهم، ولم يَظلمهم فيما حرَّم عليهم، أو أحل لهم، ولا يُريد أن يظلمهم في ذلك، ولا في غير ذلك.

فأحكامه القضائية القدرية كلُّها حَقٌّ لا ظلم ولا حَيْف، وأحكامه التشريعية كلُّها حق لا ظلم فيها ولا حيف.

قال تعالى في المنافقين: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

فجميع الأحكام الشرعية إنَّما جاءت لإسعاد البشرية وإصلاحها، ونجاحها وفلاحها، قال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

والمعنى: أَنَّ الله تعالى ما يريد ليجعل على عباده من حرج فيما شرعه في الدين، كما قال تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ الآية.

أي: ولكنه يُريد أن يطهِّر عباده من كل دنسٍ بهيمي، وفساد حيواني، ونقص نفساني، فنهاهم عما نهاهم عنه ليكون ذلك تخليةً لهم من العيوب والنقائص.

ويُريد فيما شرعه من الأوامر أن يتمَّ نعمته عليهم، وفي هذا تَحْليتهم وكمالهم، وذلك بما أمرهم به من الأوامر التي فيها الإصلاح والكمال، والارتقاء بالنفس إلى حظيرة القدس حتى تكون فيها الأهلية لأن تَحلَّ ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾.

فالشرائع السماوية نُظُم إلَهية، ناط الله تعالى بها سعادة العباد، وصلاح البلاد، وفلاح الآباء والأولاد، وإنَّ الذي خلق العالَم هو أعلم بما فيه صلاح العالَم جلَّ وعلا.

صفة الصراط

روى الإمام مسلم، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: بلغني أن الجسر ـ أي: الصراط ـ أدقّ من الشعر، وأحدّ من السيف.

وروى الإمام أحمد في: (مسنده) عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: قلتُ: يا رسول الله هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «يا عائشة أمَّا عند ثلاث فلا؛ أمّا عند الميزان حتى يثقل أو يخف فلا، وأمّا عند تطاير الكتب فإمّا أن يُعطى بيمينه أو يُعطى بشماله، وحين يخرج عنق النار فينطوي عليهم، ويقول ذلك العنق وُكِّلت بثلاثة:

وكِّلتُ بمن ادّعى مع الله إلَهاً آخر، ووكِّلتُ بمن لا يؤمن بيوم الحساب، ووكِّلتُ بكل جبَّارٍ عنيد».

قال: «فينطوي عليهم ـ أي: على الثلاثة ـ ويرمى بهم في غمرات النار».

قال: «ولجهنم جسر أدقّ من الشعر، وأحدّ من السيف، عليه كلاليب وحَسَك، يأخذون مَنْ شاء الله تعالى، والناس عليه كالطَّرْف، وكالبرق، وكالريح، وكأجاويد الخيل والركاب.

والملائكة يقولون: ربِّ سَلِّم سَلِّم ـ فناجٍ مُسلَّم، ومخدوش مسلَّم، ومكوَّر في النار على وجهه».

وروى الطبراني، والبيهقي بسند صحيح، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (يُوضع الصراط على سواء جهنم، مثل حدِّ السيف المرهف، مَدْحَضَةٌ، مزلَّة، عليه كلاليب من نار، يخطف بها، فَمُمْسَك يهوي فيها، ومصروع، ومنهم من يمرّ كالبرق فلا ينشب ذلك أن ينجو، ثم كالريح فلا ينشب ذلك أن ينجو، ثم كجري الفرس، ثم كَرَمَل الرجل، ثم كمشي الرجل).. إلخ كما سيأتي[1].

وروى البيهقي، وابن أبي الدنيا، وابن المبارك من مرسل عُبيد ابن عمير، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إن الصراط

---

(١) قال الحافظ المنذري: رواه الطبراني بإسناد حسن، وعزاه الزرقاني إلى الطبراني، والبيهقي بإسناد صحيح، كما في: (شرح المواهب) ٨: ٣٩٢.

على جهنم مثل حرف السيف، وبجنبتيه كلاليب، وحسك، يركبه الناس، فَيُختطفون.

والذي نفسي بيده إنه ليؤخَذ بالكلُّوب الواحد أكثر من ربيعة ومُضر.

والملائكة على جنبتيه يقولون: ربِّ سَلِّم سَلِّم».

وأخرج ابن عساكر، عن الفضيل بن عياض قال: (بلغنا أن الصراط مسيرة خمسة عشر ألف سنة: خمسة آلاف صعود، وخمسة آلاف هبوط، وخمسة آلاف مستوى.

أدقّ من الشعر، وأحدّ من السيف.

على متن جهنم، لا يجوز عليه ـ أي: لا يسلكه ولا يجتازه ـ إلا ضامر مهزول من خشية الله تعالى).

أحوال العباد في جَوازهم الصراط

تختلف أحوال العباد حين يَمرُّون على الصراط، فمنهم السالم الذي ينجو، ومنهم الهالك، ومنهم الذي يُخدش ثم ينجو.

روى الشيخان، عن أبي هريرة رضي الله عنه، في حديث طويل قال فيه صلى الله عليه وآله وسلم: «ثم يُضرب الصراط بين ظهراني جهنم»[1].

وفي رواية: «ويضرب جسر جهنم ـ أي: الصراط ـ فأكون أول

---

(١) والمعنى: أَنَّ الصراط يُنصَبُ، ويمدّ بين ظهراني جهنم، أي: بين أجزاء ظهرها، كأنها محيطة به، اهـ زرقاني. =

من يجوز[1] من الرسلِ بأمته ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل[2] وكلام الرسل يومئذٍ: اللَّهم سَلِّم سلِّم[3].

وفي جهنم كلاليب، مثل شوك السعدان.

هل رأيتم شوك السعدان»؟

قالوا: نعم.

قال: «فإنها مثلها، غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله تعالى، تخطف الناس بأعمالهم».

وفي رواية لمسلم: «ثم يُضرَب الجسر على جهنم، وتَحلُّ الشفاعة، ويقولون: اللهم سلِّم سلِّم».

قيل: يا رسول الله وما الجسر؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «دحض مزلَّة، فيه خطاطيف[4]، وكلاليب[5]، وحسك تكون بنجدٍ فيها شويكة يقال لها السعدان[6].

---

(١) أي: يقطعه ويمضي عليه، يقال: جاز الوادي وأجازه بمعنى قطعه، وقال الأصمعي: جازه: مشى فيه، وأجازه قطعه ـ حكاه النووي وغيره.

(٢) أي: لا يتكلم حين الإجازة على الصراط إلا الرسل، وذلك لشدة الهول وعظم الفزع.
أما في غيره من المواطن، فهم يسأل بعضهم بعضاً، ويلوم بعضهم بعضاً، ويُجادل بعضهم بعضاً.

(٣) وهذا الدعاء من الرسل هو لأمتهم شفقة عليهم ورحمة بهم.

(٤) جمع خِطاف، وهي حديدة يُختطف بها.

(٥) جمع كلُّوب: حديدة معطوفة الرأس، يعلق فيها، ويقال لها الكلاب.

(٦) قال الزرقاني: السعدان بفتح السين والدال، بينهما عين ساكنة =

فيمر المؤمنون: كطرف العين، وكالبرق، وكالريح، وكالطير، وكأجاويد الخيل والركاب.

فناجٍ مسلَّمٌ، ومخدوش[1] مرسل، ومكدوس[2] في نار جهنم.

حتى إذا خلص المؤمنون من النار، فوالذي نفسي بيده ما منكم من أحد بأشدّ مناشدة لله تعالى في استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة؛ لإخوانهم الذين في النار.

يقولون: ربنا كانوا يصومون، ويُصلون، وَيَحُجُّون.

فيقال: لهم: أخرجوا مَنْ عرفتم ـ فتحرَّم صُورهم على النار، فيُخرِجون خَلقاً كثيراً، قد أخذت النار إلى نصف ساقيه، وإلى ركبتيه» الحديث.

قال الإمام النووي رضي الله عنه عند قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «فناجٍ مُسلَّم» الحديث قال: معناه أنهم في ثلاثة أقسام:

١ ـ قسم يُسلَّم فلا يناله شيء أصلاً.

٢ ـ وقسم يُخدش ثم يُرسل فيخلص.

٣ ـ وقسم يُكردس، ويلقى فيسقط في جهنم. اهـ.

= مهملات، جمع سعدانة: نبات ذو شوك، والتشبيه به لسرعة اختطافها، وكثرة الانتشاب فيها. اهـ.

(١) أي: مخموش ممزَّق.

(٢) أي: يلقى بعضهم فوق بعض في جهنم.

فالمؤمنون الصادقون يمرون على الصراط وهم في أمان وسلام، يُضيء لهم نور إيمانهم وأعمالهم الصالحة، ويسعى بين أيديهم وبأيمانهم.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

فكلُّ مؤمن يمشي على نور إيمانه، الشامل للاعتقاد والعمل والقول، وقوة نورهم هي على حسب قوة إيمانهم، فمنهم قويُّ النور، ومنهم الأقوى، ومنهم الأقوى.

روى ابن أبي حاتم، وابن جرير، عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ قال: (على قدر أعمالهم يمرّون على الصراط: منهم مَنْ نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم، وأدناهم نوراً مَن نوره في إبهامه يتَّقِدُ مرة ويُطفأ مرة).

وقال قتادة: ذُكر لنا أن نبيَّ الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول: «من المؤمنين مَنْ يضيء نوره من المدينة إلى عَدَن أبين، وصنعاء، فدون ذلك، حتى إن من المؤمنين من يضيء نوره موضع قدميه»[1].

وروى الحاكم عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الصراط كحدِّ السيف، دحض مزلَّة» قال: «فيمرّون على قدر نورهم، فمنهم مَنْ يمرّ كانقضاض

---

(١) انظر هذه الآثار في تفسير ابن كثير وغيره.

الكوكب، ومنهم من يمرّ كالطرف، ومنهم من يمرّ كالريح، ومنهم من يمرّ كشدِّ الرجل، ويرمُل رملاً، فيمرُّون على قدر أعمالهم، حتى يمرّ الذي نوره على إبهام قدميه: تخِرُّ يدٌ وتعلق يد، وتخرّ رِجل وتعلق رِجل، فتصيب جوانبه النار»[1].

وعن عمرو بن عبسة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «مَنْ شاب شيبة في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة»[2].

فشيبة الإسلام تُضيء الصراط لصاحبها، ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تنتفوا الشيب..» الحديث رواه الترمذي وحسنه.

وعند الطبراني في: (الأوسط): «مَنْ شابَ شيبة في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة».

فقال له رجل: إن رجالاً ينتفون الشيب!

قال: «من شاء نتف نوره».

وعند الحاكم في: (الكنى) بإسناد حسن: «من شاب شيبة في الإسلام كانت له نوراً، ما لم يغيِّرها».

قال العلامة المناوي: أَيْ ما لم يغيِّر شيبته بالسواد.

وقال في شرح قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «كانت له نوراً

---

(١) قال الحافظ المنذري: رواه ابن أبي الدنيا، والطبراني، والحاكم واللفظ له. اهـ.

(٢) قال الحافظ المنذري: رواه النسائي في حديث، والترمذي وقال: حديث حسن صحيح. اهـ.

يوم القيامة»: أي: يصير الشيب نفسه نوراً، يهتدي به صاحبه، ويسعى بين يديه في ظلمات الحشر إلى أن يدخله الجنة، ثم قال: فَكُرِه نتف الشيب من نحو: لحية، وشاربٍ، وعنفقةٍ، وحاجب، وعذار؛ للفاعل والمفعول به.

قال النووي: ولو قيل يحرم لم يبعد. اهـ.

وأما الكفار المتظاهرون بالكفر فإنهم أُمِرَ بهم إلى جهنم من بدء الأمر.

وأما المنافقون فهم كما أخبر الله تعالى عنهم في قوله:

﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

فالمنافقون لما كانوا في الدنيا يُخادعون ـ وذلك بإظهارهم الإسلام وإبطانهم الكفر ـ فإن الله تعالى هو خادعهم في الدنيا بأن عصم دماءهم وأموالهم، استدراجاً لهم في الضلال والطغيان، وهو خادعهم في الآخرة، وذلك بأن يتمثل لهم إسلامهم الذي تظاهروا به في الدنيا؛ يتمثل لهم بشيء من النور يمشون به خطوات قليلة على الصراط، حتى يظن أحدهم أنه قد أَمِنَ ونجا، فبيناهم كذلك ذَهب الله بنورهم، وتركهم في ظلمات كفرهم ونفاقهم، لا يُبصرون، وإذا بهم يستغيثون بالمؤمنين أمامهم يقولون لهم:

﴿ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ أي: انتظرونا نستضيء بنوركم،

ولا تسرعوا إلى الجنة، أو المعنى: انظروا إلينا.

قال العلامة البيضاوي رحمه الله تعالى: فإنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم، فيستضيؤون بنورٍ من بين أيديهم. اهـ.

وحينئذ أجابهم المؤمنون بما أخبر الله تعالى عنهم:

﴿ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ﴾.

والمعنى: كما في: (تفسير) البيضاوي رحمه الله تعالى: ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا نوراً، وذلك بتحصيل المعارف الإلٰهية، والأخلاق الفاضلة، فإن النور يتولد منها.

أو المعنى: ارجعوا إلى الموقف فإنه من ثَمَّ يُقتبس، أي: ارجعوا إلى الموقف الذي تُعطىٰ فيه الأنوار لأصحابها. اهـ.

أَوِ المعنى: ارجعوا إلى حيث شئتم، فاطلبوا نوراً آخر، فإنه لا سبيل لكم إلى الاقتباس من نورنا، فإنه لا يوجد عندكم استعداد إلى الاستمداد من أنوارنا، كما أن الأعمى لا استعداد عنده لأن يستمد من بصر البصير، ويستضيء من البصر، قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾.

وقال تعالى في الكفار الظاهرين والمنافقين: ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ فهم صمّ القلوب، وبُكمها، وعُميها.

وقال تعالى: ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾.

ولما كان مُرور المارِّين على الصراط هو على حسب نور إيمانهم وأعمالهم، وسلامتهم من الخدش والكلاليب هي على حسب صلاح أعمالهم، وامتثال أوامر الله تعالى، واجتناب ما نهى

عنه، لأن ذنوب الإنسان وخطاياه هي التي تُحرك عليه كلاليب جهنم لتخدشه وتصرعه.

لذلك أمر الله تعالى المؤمنين أَن يتوبوا إليه من ذنوبهم ومخالفاتهم، قبل أَنْ يأتي عليهم ذلك اليوم ـ ليمرّوا على الصراط آمنين سالمين.

فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾.

فالله تعالى نادى عباده المؤمنين من هذه الأمة المحمدية على رسولها الصلاة والسلام، ناداهم بصيغة التأييه لما في ذلك من قوة التنبيه إلى الأمر الذي يأتي وراء النداء وهو قوله تعالى: ﴿ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا ﴾ أي: ليتبْ كلُّ مؤمن منكم من ذنوبه التي صدرت منه، وذلك بأن يُقلع عن ذنوبه، ويندم من قلبه على فعلها أيضاً، ويعزم على أن لا يعود إليها، وإنْ كان ذلك الذنب مما يَتعلَّق بحقوق المخلوقات فَلْيُوَفِّهم حقهم، أو يَسمحوا عنه، وبذلك تكون توبة نصوحاً.

فَنُصح التوبة إما سلامتها من الغشِّ، وذلك بأن تكون عن ندم القلب، وحسرة النفس مما جَنَتْ وارتكبت، كما هو الشأن في العسل الناصح، وهو السالم من الغش والعكر.

وإما أن يكون نُصْح التوبة هو: استيفاءها لعامَّة الذنوب، بأن

يتوب المؤمن من ذنوبه كلِّها، لا أَنّـه يتوب من ذنب، ويبقى مصراً على آخر.

فتكون التوبة النصوح في كمالها واستيفائها كالثوب الناصح، وهو الذي لا خَرق فيه، ولا فتق، بل هو سالم سابغ.

ويقال للخياط ناصح، وللإبرة مِنْصحة.

فمعنى الآيـة على الوجه الأول: ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ أي: توبة صادقة من قلوبكم، نادمين على ما فعلتم، ولا تكن توبتكم توبة المنافقين المخادعين، الذين يتوبون بلسانهم ولم تندم قلوبهم على ما فعلوا، ولم يأسفوا على إجرامهم.

قال الله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ أي: تتقطع قلوبهم بالندم، والتحسُّر على ذنبهم.

وفي: (مسند) أحمد وغيره، عن ابن مسعود رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الندم توبة».

وروى ابن أبي حاتم، عن زرِّ بن حُبيش[1] قال: سألت أبيّ بن كعب رضي الله عنه عن التوبة النصوح فقال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك فقال: «هو الندم على الذنب حين يفرط منك، فتستغفر الله بندامتك منه عند الحاضر، ثم لا تعود إليه أبداً».

وعلى الوجه الثاني: فمعنى الآية ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ أي: توبة من جميع ذنوبكم، تكون سابغة وافية، واقية لكم من العقاب

---

(١) انظر: (تفسير) ابن كثير.

والعذاب، ولا تكونوا كالذين يتوبون من بعض الذنوب وهم مصرّون على غيرها، فإنَّ ذلك لا يدفع عنكم خطر العقاب والعذاب.

ثم بَيَّن لهم سبحانه أنَّهم إذا تابوا توبة نصوحاً فإن الله تعالى يفتح لهم باب رجاء محقق؛ لا يخيبون فيه، وذلك بأن يُكفِّر عنهم سيئاتهم، ويدخلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار.

قال تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾.

فهو سبحانه يُعطيهم ما يرجون من تكفير السيئات، ودخول الجنات في ذلك اليوم العظيم، الذي أخزى الله تعالى فيه الكفار والمنافقين، والظالمين والفاسقين ـ وما أعظمه من خِزيٍ، وما أشده من خذلان وهوان.

أما هذا النبي الأكرم، سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فهو في أعلى درجة الإكرام، وعزَّة المقام، وعلوِّ الشأن والمكان.

والذين آمنوا به واتبعوه هم معه في عِزّة وكرامة، وعطاء وفضل، قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾.

فالله تعالى يُكرم النبي صلى الله عليه وآله وسلم دائماً على مدِّ العوالم بأنواع العزّة والكرامة، ويرفعه درجات في الفضيلة وعلوِّ المقامة.

فلقد أعطاه الله تعالى الكوثر الذي فيه الخير العام الطامُّ ـ كما تقدم، وأعطاه الشفاعة العامة، وأعطاه السيادة العامة، وأعطاه لواء الحمد الجامع لأنواع المحامد، الذي اجتمع تحته جميع الأنبياء

والرسل صلوات الله تعالى عليه وعليهم فقال: «آدم فمن دونه تحت لوائي ولا فخر».

ثم بيَّن سبحانه أثر نور إيمانهم المحيط بهم، فقال سبحانه: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ فلقد اكتنفهم نور إيمانهم من جميع جهاتهم، فهم يَمرّون على الصراط ونورهم محيط بهم، وهم يدعون ربهم: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

دعوا الله تعالى أَن يُتمم لهم النور، فلا يطفأ ولا يذهب به أبداً، حتى يدخلوا الجنة وهم سالمون آمنون.

نقل الحافظ ابن كثير في: (تفسيره) عن الضحاك أنه قال: ليس أحد ـ من المسلمين ـ إلا يُعطى نوراً يوم القيامة، فإذا انتهوا إلى الصراط طفىء نور المنافقين، فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا أن يُطفأ نورهم كما طفىء نور المنافقين فقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾.

ومن أجل ذلك جاءت البشارة النبوية للمَشَّائين في ظلمات الليل إلى الصلاة في المساجد بالنور التام يوم القيامة ـ ويدخل تحت هذا صلاة العشاء والفجر في المساجد، لأنهما ثقيلتان على المنافقين.

فعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «بشِّر المشائين في الظُلمِ إلى المساجد بالنور التامِّ يوم القيامة»[1].

---

(١) قال المنذري: رواه ابن ماجه، وابن خزيمة في: (صحيحه) والحاكم =

ودعوا الله تعالى أن يغفر لهم ذنوبهم، حتى لا تَخدشهم كلاليب جهنم، وهم يمرُّون على الصراط، فإنها تَخدش المذنب على حسبِ كِبَرِ ذنبه وصغره.

هيبة المرور على الصراط وخطورة مَزلَّة الأقدام

إنَّ لورود العباد جهنم، ومرورهم على الصراط المضروب بين ظهرانيها، فزعاً في قلوب الواردين، وخوفاً من زَلّة الأقدام، والتردِّي في نار جهنم، وقد نبه النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى خطورة ذلك الورود حيث قال: «ثم يُضرب الصراط بين ظهراني جهنم، فأكون أَول من يجوز من الرسل بأمته، ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل، وكلام الرسل يومئذٍ: اللهم سَلِّم سَلِّم».

فما أعظم ذلك المرور، وما أخطره، حتى إنَّ جميع المارِّين لزموا الصمت، فلا كلام إلا من الرسل، وكلام الرسل يومئذ: «اللهم سلِّم سلِّم».

فراحوا يدعون الله تعالى لأتباعهم، أَنْ يجعلهم الله تعالى في سلامٍ وأمانٍ، بحيث يجتازون الصراط سالمين، آمنين من المخاوف والمكاره.

فما أرحم الرسل بأتباعهم، وما أشدَّ رأفتهم وعطفهم على الذين آمنوا بهم، وتمسَّكوا حق التمسك بشريعتهم، لقد أهمَّهم أمر أتباعهم، فراحوا يدعون الله تعالى، ويلحُّون في الدعاء أن يُسلِّم

= واللفظ له، وقال: صحيح على شرط الشيخين. اهـ. =

أتباعهم من مفزعات الصراط، ومخاوفه.

وأعظمهم رحمةً، وأشدُّهم رأفة، سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾.

وقال تعالى فيه: ﴿حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعلى سائر إخوانه من النبيين والمرسلين.

روى الإمام مسلم، عن حذيفة وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يجمع الله الناس...» فذكر الحديث إلى أن قال: «فيأتون محمداً صلى الله عليه وآله وسلم فيقوم، ويُؤذن له، وترسل معه الأمانة والرحم، فيقومان جَنبتي الصراط: يميناً وشمالاً، فيمرُّ أوَّلكم كالبرق».

قال: قلت: بأبي أنت وأمي أيُّ شيء كمرِّ البرق؟

قال: «ألم تر إلى البرق كيف يَمرُّ ويرجع في طرفة عين؟

ثم كمرِّ الريح، ثم كمرِّ الطير، وشدِّ الرجال؛ تجري بهم أعمالهم.

ونبيُّكم صلى الله عليه وآله وسلم قائم على الصراط يقول: ربِّ سلِّم سلِّم، حتى تعجز أعمال العباد، حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زاحفاً».

قال: «وفي حافتَيِّ الصراط كلاليب معلقة، مأمورة، تأخذ مَن أُمرتْ به، فمخدوشٌ ناجٍ، ومكدوس في النار» الحديث.

فالله تعالى يُنجي المتقين، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ الآية، ويجعلهم في سِلْمٍ وأمان.

قال تعالى: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ اللهم اجعلنا منهم.

ولما كان المرور على الصراط خطيراً، بَيَّن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أَنّ الذين تَزلُّ أقدامهم حين يمرّون على الصراط هم كثيرون.

روى البيهقي، عن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن على جهنم جِسراً أدقّ من الشعر، وأحد من السيف، أعلاه نحو الجنة ـ دحض مزلَّة، بجنبيه كلاليب، وحَسَكُ النار، يَحشر الله به من يشاء من عباده، الزالُّون والزالاّت يومئذ كثير» الحديث.

وقد حضَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم على تعاطي الأعمال التي يُثبت الله تعالى بها قدم صاحبها على الصراط:

فمن ذلك ملازمة المساجد:

كما جاء عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «المسجد بيت كل تقيٍّ، وتكفَّل الله لمن كان المسجد بيته بالرَّوْح والريحان، والرحمة، والجواز على الصراط إلى رضوان الله؛ إلى الجنة».

قال الحافظ المنذري: رواه الطبراني في: (الكبير) و(الأوسط) والبزار وقال: إسناده حسن، وهو كما قال رحمه الله تعالى. اهـ.

وعزاه الزرقاني أيضاً إلى سعيد بن منصور.

ومن ذلك إحسان الصدقة: وذلك بأن تكون من مال حلال، وأن تَقَع موقعها.

فقد روى أبو نعيم والأصبهاني مرفوعاً: «مَن أحسن الصدقة جاز على الصراط مُدِلاً».

قال في: (النهاية): أي: مُنبسطاً، لا خوف عليه، وهو من الإدلال. اهـ.

ومن ذلك إقالة المسلم بيعته وعثرته:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ أقال مسلماً بيعته: أقاله الله عثرته يوم القيامة».

قال المنذري: رواه أبو داود وابن ماجه، وابن حبان في: (صحيحه) واللفظ له، والحاكم وقال: صحيح على شرطهما.

قال: وفي رواية لابن حِبان: «مَن أقال مسلماً عثرته: أقاله الله عثرته يوم القيامة».

قال: وفي رواية لأبي داود في: (المراسيل): «مَنْ أقال نادماً: أقاله الله نفسه يوم القيامة».

ومن ذلك تيسير الإنسان ما عَسُر على غيره:

عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَن كان وُصْلةً لأخيه المسلم إلى ذي سلطان في مبلغ بِرٍّ، أو تيسير عسيرٍ: أعانه الله تعالى على إجازة الصراط يوم القيامة؛ عند دَحض الأقدام» أي: عندما تزل الأقدام عند مرور الصراط.

قال في الترغيب: رواه الطبراني في: (الصغير) و(الأوسط)، وابن حبان في: (صحيحه).

ومن ذلك إعانة العباد في حاجاتهم، والمشيُ في قضاء مُهمَّاتهم:

عن أنس رضي الله عنه، أَنَّ رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا رسول الله: أيُّ الناس أحبّ إلى الله؟

فقال: «أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس، وأحبّ الأعمال إلى الله عزّ وجلَّ سرور تُدخله على مسلم: تكشف عنه كربةً، أو تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جُوعاً.

ولأَن أمشي مع أخي في حاجةٍ أحبّ إليَّ من أن أعتكف في هذا المسجد شهراً.

ومن كظم غيظه ـ ولو شاء أن يُمضيه أمضاه ـ ملأ الله قلبه يوم القيامة رِضىً.

ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى يقضيها له يُثَبِّتُ الله قدميه يوم تزول الأقدام».

رواه الأصبهاني وابن أبي الدنيا.

وعند ابن حبان: «من أعان عبداً في حاجته: ثبَّت الله له مقامه يوم تزول الأقدام».

ومن ذلك حماية المؤمن من منافق:

فعن سهل بن معاذ بن أنس الجُهَني، عن أبيه رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «مَنْ حمى مؤمناً من منافق:

بعث الله ملكاً يَحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم، ومن رمى مسلماً يريد به شينه: حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال» رواه أبو داود.

وخلاصة القول: إنَّ من أراد أن يتبيَّن له أمر سيره على الصراط غداً في الآخرة، وأحبَّ أَنْ يعرف كيف مشيه على صراط الآخرة، فلينظر إلى مشيته على صراط شريعة الله تعالى في الدنيا، وكيفية سيره عليها، هل هو يمشي سوياً مستقيماً عليها بلا ميل إلى محرمات الشهوات، ولا انحرافٍ نحو الشبهات والضلالات؟ أم هو في ذلك يروغ رَوَغان الثعالب، يستقيم تارة في سيره، وينحرف انحرافات ويخادع مخادعات.

وقد نبه النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى ذلك حيث قال، كما جاء في: (مسند) أحمد، عن النواس بن سمعان رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنبتي الصراط سُوران، فيهما أبواب مفتَّحة، وعلى الأبواب سُتور مُرْخاة، **وعلى باب الصراط داعٍ** يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً، ولا تعوجوا.

وداعٍ يدعو من فوق الصراط.

فإذا أراد الإنسان أَن يفتح شيئاً قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه» ـ أي: تدخله ـ.

قال: «فالصراط: الإسلام، والسُوران: حدود الله تعالى، والأبواب المفتَّحة: محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط

كتاب الله، والداعي من فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مسلم».

قال الحافظ ابن كثير: ورواه الترمذي والنسائي جميعاً، عن النواس بن سمعان رضي الله عنه، وهو إسناد حسن صحيح والله أعلم. اهـ.

أوّل مَن يجوز الصراط

هو سيِّدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم

إن أول من يجوز الصراط بأمته، ويشرِّفه بنظرته، وينوِّره للمؤمنين؛ ليسيروا في ضيائه، وعلى محجَّته هو سيدنا محمد إمام الأنبياء والمرسلين، صلوات الله تعالى عليه وعليهم أجمعين، الذي جمع الله تعالى له فضائل الأوليات، الجامعة لأكمل المراتب وأعلى الدرجات

فهو صلى الله عليه وآله وسلم أَول الأنبياء في الخَلْق في عالم الأرواح، وآخرهم في البعث في عالم الأشباح ـ كما تقدم دليل ذلك في الكلام حول الروح.

وهو صلى الله عليه وآله وسلم أَوّلُ من نَبَّأَهُ الله تعالى في عالم الأرواح؛ قبل الأنبياء كلهم.

كما جاء في: (سنن) الترمذي وغيرها، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قيل له: يا رسول الله متى وجبتْ لك النبوة، وفي رواية: متى استنبئت، وفي رواية: متى كنت نبياً؟.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد».

وتقدم تفصيل ذلك أيضاً في الكلام حول الروح.

وهو صلى الله عليه وآله وسلم أَوّلُ من تنشق عنه الأرض:

كما روى مسلم وغيره، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأنا أول من ينشقّ عنه القبر، وأنا أول شافع وأول مُشفَّع».

وهو صلى الله عليه وآله وسلم أول شافع وأول مشفَّع:

روى الترمذي وغيره، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبيٍّ يومئذ: آدم فمن سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشقُّ عنه الأرض ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفَّع ولا فخر»[1].

فهو صلى الله عليه وآله وسلم أول من يشفع عند الله تعالى، ويَقْبَلُ الله تعالى شفاعته، وبه صلى الله عليه وآله وسلم يُفتح باب الشفاعات، فتشفع الرسل والأنبياء، ويشفع الصديقون والشهداء، والعلماء والأولياء، والصلحاء؛ كما تقدم في بحث الشفاعة.

وتشفع الأعمال الصالحة، والأقوال الطيبة بصاحبها، فالصيام يشفع بصاحبه، والقرآن يشفع بصاحبه، والصلاة على النبي صلى

---

(١) قال الحافظ الزرقاني: رواه الترمذي وقال: حسن صحيح، وكذا رواه ابن ماجه، وأحمد. اهـ.

الله عليه وآله وسلم، والتسبيح والتحميد والتكبير.

وتقدم في الحديث: «الصيام والقرآن يشفعان في العبد يوم القيامة» الحديث.

وحديث: «اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه» الحديث.

وحديث: «إنَّ ممَّا تذكرون من جلال الله تعالى التسبيح والتحميد والتكبير، يتعاطفن حول العرش، يَذْكرن بصاحبهن» الحديث.

فجميع هذه الشفاعات إنما فَتح بابها الفاتح الأول، والشفيع الأفضل، صاحب مقام الوسيلة، وأعلى درجات الفضيلة، الحبيب الأكرم، والسيد الأفخم، رحمة الله تعالى المهداة للعالمين، ليرحمهم الله تعالى به في جميع العوالم، سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وهذه منقبة كبرى، ومنزلة عظمىٰ، خُصَّ بها نبينا سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وهي: أَنَّ جميع الخلائق يحتاجون إلى شفاعته بهم عند الله تعالى، وهو غير محتاج إلى مَنْ يشفع به.

فهو صلى الله عليه وآله وسلم الشفيع لغيره ولا شفيع له.

وهو صلى الله عليه وآله وسلم أول من يُؤذن له حين يستأذن على ربه، وهو أول من يسجد لربه:

روى الإمام أحمد، عن أبي الدرداء رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أنا أول من يُؤذن له يوم القيامة بالسجود، وأول من يَرفع رأسه، فأنظر بين يدي فأعرف أمتي من

بين الأمم، ومن خلفي مثل ذلك، وعن يميني مثل ذلك، وعن شمالي مثل ذلك».

فقال رجل: يا رسول الله: كيف تعرف أمتك من بين الأمم؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «هم غرٌّ مُحَجَّلون من أثر الوضوء، ليس أحد كذلك غيرهم، وأعرفهم أنهم يُؤتَوْن كتبهم بأيمانهم، وأعرفهم تسعى ذريتهم بين أيديهم»[1] الحديث.

وتقدم في حديث الشفاعة أنه صلى الله عليه وآله وسلم يَذهب ليسجد لله تعالى تحت العرش، فيدعه ما شاء الله، ويفتح الله تعالى عليه من محامده وحسن الثناء عليه ما لم يفتحه على أحد قبله.

وهو صلى الله عليه وآله وسلم أول من يُفتح له باب الجنة، وهو أول من يدخلها، والكلُّ يدخلونها من ورائه صلى الله عليه وآله وسلم.

روى مسلم، والترمذي، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «آتي باب الجنة فأستفتح فيقول الخازن: مَنْ؟

---

(١) قال الحافظ المنذري: رواه أحمد وفي إسناده ابن لهيعة، وهو حديث حسن في المتابعات. اهـ.
وقال في: (مجمع الزوائد): رواه أحمد والبزار باختصار، إلا أنه قال: «وذراريهم نور بين أيديهم» قال: ورجال أحمد رجال الصحيح، غير ابن لهيعة وهو ضعيف قد وُثِّق. اهـ.
قلت: ورواه ابن أبي حاتم، ومحمد بن نصر المروزي، كما في: (تفسير) الحافظ ابن كثير، عند سورة الحديد، وعند سورة التحريم.

فأقول: محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم.
فيقول: بكَ أمِرتُ أن لا أفتح لأحد قبلك».

قنـاطر الصراط

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا﴾.

قال الإمام البيضاوي رحمه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ قال: موضع يَرصد فيه خزنة النار: الكفار، أو خزنة الجنة: المؤمنين، ليحرسوهم مِنْ فَيْحِهَا في مجازهم عليها ـ أي: حين يجوزون الصراط على متن جهنم ـ كالمضمار، فإنه الموضع الذي يُضمر فيه الخيل إلخ.

وقال الحسن البصري وقتادة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ يعني: أنه لا يدخل أحد الجنة حتى يَجتاز النار، فإن كان معه جواز نجا، وإلا احتبس. اهـ.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن جسر جهنم سبع محابس، يُسأل العبد عند أولها عن شهادة أن لا إلَه إلا الله ـ أيْ: مع شهادة محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ كما سئل عن ذلك في القبر، فإن جاء بها تامـةً جاز إلى المحبس الثاني.

فيسأل فيه عن الصلوات؛ فإن جاء بها تامةً جاز إلى الثالث.

فيسأل عن الزكاة؛ فإن جاء بها تامةً جاز إلى الرابع.

فيسأل عن الصوم؛ فإن جاء به تاماً جاز إلى الخامس.

فيسأل فيه عن الحج ـ أي: وكان ممن استطاع إليه سبيلاً ـ فإنْ جاء به تاماً جاز إلى المحبس السادس.

فيسأل عن العمرة؛ فإن جاء بها تامةً جاز إلى السابع.

فيسأل عن مظالم العباد؛ فإن خرج منها انطُلق به إلى الجنة[1]. اهـ.

وهذا من الأمور الثابتة عند أهل العلم، ولذلك نقل العلامة القرطبي رحمه الله تعالى في: (التذكرة) عن أهل العلم، أنه لن يجوز أحد الصراط حتى يُسأل عن سبع قناطر:

فأما القنطرة الأولى: فيسأل فيها عن الإيمان بالله تعالى، وهي شهادة أن لا إلَه إلا الله ـ أي: مع شهادة محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ فإن جاء بها مخلصاً جاز على الصراط، وإلا وقع في النار.

ثم يُسأل في القنطرة الثانية: عن الصلاة، فإن جاء بها تامة جاز، وقطع المسافة إلى ما وراءها وإلا وقع في النار.

ثم يُسأل في القنطرة الثالثة: عن صوم شهر رمضان، فإن جاء به تاماً جاز.

ثم يُسأل في القنطرة الرابعة: عن الزكاة، فإن جاء بها تامة جاز.

ثم يُسأل في القنطرة الخامسة: عن الحج والعمرة، فإن جاء بهما تامَّين جاز.

ثم يُسأل في القنطرة السادسة: عن الغُسل والوضوء؛ فإن جاء بهما تامين جاز.

---

(١) انظر تفسير الخازن وغيره.

ثم يُسأل في القنطرة السابعة: عن ظُلامات الناس ـ وليس في القناطر أصعب منها، فإن خَلُص منها انتهى إلى الجنة[1]. اهـ.

فآخر قناطر الصراط، وآخر محابسه، تلك القنطرة التي يُسأل فيها المؤمنون عن مظالم بينهم، بسبب تبعات وحقوق، على وجه التدقيق لكل حقٍّ وتبعة؛ وإن كان ذلك جُزئياً صغيراً، حتى يحصل التصافي التامُّ والتسامح العامُّ، فهناك يُؤذن في دخول الجنة.

كما يدل على ذلك ما رواه البخاري وغيره، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يَخلص المؤمنون يوم القيامة من النار، فيُحبَسُون على قنطرة بين الجنة والنار، فيُقتصُّ من بعضهم لبعض، مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أذن لهم في دخول الجنة.

فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم بمنزله في الجنة أهدى منه بمنزله الذي كان في الدنيا».

يعني: أنَّ المؤمنين يعرفون منازلهم في الجنة، أكثر من معرفتهم بمنازلهم في الدنيا.

قال تعالى: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾.

فلما خلص المؤمنون من النار، وذلك بالمرور على الصراط: حُبسوا على تلك القنطرة لقصاص التبعات والمظالم بينهم، وهذا

---

(١) وقد تناقل كثير من محققي المفسرين والمحدثين هذا الكلام عن العلامة القرطبي في: (التذكرة) بتسليم وإقرار، دون ردٍ وإنكار، ومنهم شراح البخاري، والحافظ الزرقاني في: (شرح المواهب) وغيرهم.

لا يتنافى مع القِصاص العامِّ السابق الذي جرى بين الكفار بعضهم من بعض، وبين الكفار والمؤمنين، فإن ذلك وقع قُبيل الصراط.

وذلك لأنَّ الكفار لا يقدرون على جواز الصراط، وكذلك المنافقون، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث كما تقدم: «يَحشر الله الناس عُراةً غرلاً بُهماً.

ثم يناديهم بصوت يَسمعه مَن بَعُد كما يسمعه مَن قَرب يقول: أنا الملك، أنا الديان، لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حقٌّ حتى أقصَّه منه» إلى تمام الحديث والله تعالى أعلم.

* * *